الإعجازُ التَّشريعيُّ في العلاقةِ الزَّوجيَّة



إعداد
د. نواف بن معيض الحارثي

مقدمة

الحمد لله الذي جعل لكل أمة شرعةً ومنهاجاً، شرع فأحكم، وكل شيء عنده بأجل مقدر، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا ند له ولا شريك ولا مثيل.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن الله أرسل محمداً عليه الصلاة والسلام وأيده بالحق والمعجزات؛ ليؤمن الناس، ومما أُيد به القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء تلك المعجزة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان.

وأينما قلبت ناظريك في هذا الكتاب العزيز وجدت وجوه إعجازه ظاهرة من إعجاز بياني أعجز الفصحاء وأسكت البلغاء، ومن إعجاز تشريعي وغيبي وعلمي فتسابق المتسابقون وتنافس المتنافسون لإبراز هذه الوجوه وإيضاحها[1]؛ لتدل على عظمة كلام الله جل وعلا وأنه منزل من حكيم حميد.

ومن أوجه إعجاز القرآن: الإعجاز التشريعي حيث تضمن القرآن الكريم تشريعات ومناهج ومبادئ ونظماً، شملت كافة مجالات الحياة، وبالنظر إلى ما جاء به القرآن من المبادئ والتشريعات وبين ما وضعه البشر من أنظمة وقوانين نجد أن البون شاسع بين تشريعات القرآن وبين تشريعات البشر - كما بين الثرى والثريا - لنصل إلى حقيقة قاطعة، ودلالة ظاهرة على أن القرآن معجزة خالدة وأنه من عند الله تبارك وتعالى.

يقول سيد قطب[2]: «الذين يدرسون النظم الاجتماعية، والأصول التشريعية، ويدرسون النظام الذي جاء به القرآن، يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانية ومقتضيات حياتها من جميع جوانبها، والفرص المدخرة لمواجهة الأطوار والتقلبات في يسر ومرونة... كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشري واحد، أو مجموعة من العقول في جيل واحد، أو في جميع الأجيال...».

ولأهمية موضوع العلاقة الزوجية في الإسلام وأهمية إبراز ما فيها من إعجاز تشريعي في ضوء القرآن سطرت هذا البحث، وأسميته: **الإعجاز التشريعي في العلاقة الزوجية**.

---

(١) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ودلائل الإعجاز، وإعجاز القرآن وغيرها.
(٢) في ظلال القرآن (١٧٨٥/٣).



أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١ ـ إظهار إعجاز القرآن، وإبراز تشريعاته الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان.

٢ ـ حاجة المجتمعات المسلمة إلى فهم حقائق القرآن وتشريعاته.

٣ ـ بيان أن العلاقة الزوجية علاقة وطيدة ممتدة امتداد النشأة الأولى للإنسان.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث، وجاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: الإعجاز، وفيه مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الإعجاز لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: تعريف التشريع لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: خصائص نظام الأسرة في الإسلام.

المبحث الثالث: العلاقة الزوجية، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: خلق الأزواج من الأنفس.

المطلب الثاني: السكن.

المطلب الثالث: المودة.

المطلب الرابع: الرحمة.

المطلب الخامس: اللباس.

المبحث الرابع: بيان وجوه الإعجاز في تشريع الزواج.

وفي الختام فإني أشكر الله جل وعلا أن يسَّر وأعان على كتابة هذا البحث، فللَّه الحمد أولاً وآخراً... وهو جهد المقل، ولا أدعي التمام فذلك في طبع البشر محال!! وحسبي أني حاولت، ولن يعدم ناقد من وجود الخلل والنقص، ولكن رحم الله القائل:

وإن كان خرْق فأدركه بفضلة
من الحلم وليصلحه من جاد مُقْولا[1]

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) انظر: الشاطبية: ٧.



المبحث الأول
تعريف الإعجاز والمعجزة

المطلب الأول:
الإعجاز لغةً واصطلاحاً

يقول ابن فارس: «عجز: العين والجيم والزاي أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخر الشيء.

فالأول: عجز عن الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز، أي: ضعيف... ويقال: أعجزني فلان: إذا عجز عن طلبه وإدراكه...»[(١)].

ويقول الراغب: «عجز: عجُزُ الإنسان مؤخره وبه شبه مؤخر غيره... والعجز: أصله التأخر عن الشيء وحصوله عند عجز الأمر، أي: مؤخره... وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء وهو ضد القدرة...»[(٢)].

وفي المعجم: «عجزت المرأة عجوزاً: كبرت وأسنت، وعن الشيء عجزاً وعجزاناً: ضعف ولم يقدر عليه، وفلان عن الشيء عجزاً: لم يكن حازماً، وعن العمل: كبر فهو عاجز... وأعجز فلان: سبق فلم يدرك، وأعجز الشيء فلاناً: فاته ولم يدركه، ويقال: أعجزه فلان وصيره عاجزاً وفلاناً وجده عاجزاً...

ومنه: المعجزة: أمر خارق للعادة يظهره الله على يد نبي تأييداً لنبوته

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (عجز).
(٢) المفردات، مادة (عجز).

وما يعجز البشر أن يأتوا بمثله»[1].

والإعجاز في الكلام: هو أن يؤدي المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق[2].

والمعجزة اصطلاحاً: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة[3].

وإعجاز القرآن مركب إضافي، معناه بحسب أصل اللغة: إثبات عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به، فهو من إضافة المصدر لفاعله، والمفعول وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به، والتقدير: إعجاز القرآن خلق الله عن الإتيان بما تحداهم به[4].

سبق الإشارة إلى اختلاف العلماء في تحديد وجوه الإعجاز القرآني، يقول الزرقاني: «النظر في هذا الكتاب الكريم بإنصاف، تتراءى له وجوه كثيرة مختلفة من الإعجاز، كما تتراءى للناظر إلى قطعة الماس ألوان عجيبة متعددة بتعدد ما فيها من زوايا وأضلاع...»[5].

ولعل الأقوال تجتمع في وجوه من الإعجاز، هي:

١ ـ الإعجاز البياني.

٢ ـ الإعجاز التشريعي.

٣ ـ الإعجاز الغيبي.

---

(١) انظر: المعجم الوسيط، مادة (عجز).
(٢) التعريفات: ٨٨.
(٣) الإتقان (٢/٢٢٨)، والتعريفات: ٣٠٦.
(٤) مناهل العرفان (٢/٢٥٩).
(٥) مناهل العرفان (٢/٢٦٠).



٤ ـ الإعجاز العلمي.

وبما أن بحثنا ينصب حول الإعجاز التشريعي فيحسن بنا أن نعرف بـ(التشريع):

المطلب الثاني:

تعريف التشريع لغةً واصطلاحاً

قال ابن فارس: «شرع: الشين والراء والعين أصل واحد وهو شيء يفتح في امتداد يكون فيه، من ذلك الشريعة وهي مورد الشاربة الماء، واشتق من ذلك الشرعة في الدين...»[(١)].

ويقول الراغب: «شرع: الشرع نهج الطريق الواضح، يقال: شرعت له طريقاً، والشرع مصدر ثم جعل اسماً للطريق النهج فقيل له: شِرع وشَرع وشريعة واستعير ذلك للطريقة الإلـٰهية... قال بعضهم: سميت الشريعة شريعة تشبيهاً بشريعة الماء من حيث أن من شرع فيها على الحقيقة المصدوقة روي وتطهر...»[(٢)].

وفي المعجم: «شرع: الوارد شرعاً: تناول الماء بفيه... وشرع الشيء: أعلاه وأظهره.

والدين: سنَّه وبيَّنه، وفي التنزيل العزيز: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

والأمر: جعله مشروعاً مسنوناً، والطريق: مده ومهده، والمنزل: أقامه على طريق نافذ، والباب: جعله على طريق نافذ...»[(٣)].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (شرع).

(٢) المفردات، مادة (شرع).

(٣) المعجم الوسيط، مادة (شرع).

قلت: وفي هذه التعريفات إشارة إلى أن الكتاب والسنة مثل الماء الذي لا يستغني عنه أي مخلوق في هذا الكون؛ لأن فيه حياته، وكذلك شرع الله فيه حياة للناس أجمعين.

فالتشريع والشريعة: ما شرعه الله تعالى لعباده من العقائد والأحكام في شؤون الحياة(١).

يقول ابن عاشور(٢): «ومعنى (شرع) أوضح وبيّن لكم مسالك ما كلفكم به، وأصل ﴿شَرَعَ﴾ جعل طريقاً واسعة، وكثُر إطلاقه على سنّ القوانين والأديان فسُمّي الدّين شريعة فشرع هنا مستعار للتبيين. . . .».

والقرآن الكريم اشتمل على الأنظمة التي يحتاجها البشر في حياتهم المعاشية، ولم يدع جانباً من الجوانب إلا وأنزل فيه بياناً، وهذه الأنظمة والأسس لم ينجبها مفكراً أو مصلحاً إنما هي من عند الله تعالى؛ ليدل دلالة واضحة قاطعة أن هذا القرآن هو كلام الله منزل من عند حكيم خبير.

إن البشر مهما بلغت طاقاتهم فلن يضعوا أنظمة وقوانين تتناول جانباً متكاملاً من جوانب حياة الناس! فكيف بهم أن يضعوا قوانين وأنظمة لجميع الجوانب الحياتية للناس من أمور العقائد والعبادات والزواج والمعاملات. . . !

إن المشرع لهذه الأمور ليس هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو لم يأت بها من تلقاء نفسه، إنما تلقاها من رب العالمين الذي خلق الخلق وهو أعلم بمصالحهم من أنفسهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وعليه؛ فلن يأت البشر أو تشريعاتهم بمثل ما جاء به القرآن من إعجاز

(١) انظر: التعريفات، مادة (شرع)، والإسلام عقيدة وشريعة: ١٠.

(٢) التحرير والتنوير (٢٥/١١٨).



وتشريع لأمور الزواج وما يتعلق بالعلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة.

ونحن نتحدث عن وجه من وجوه الإعجاز التشريعي للعلاقة الزوجية من خلال قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]، ومن خلال قول الله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].



المبحث الثاني:
خصائص نظام الأسرة في الإسلام

يمثل نظام الأسرة في الإسلام جزءاً مهماً من النظام الإسلامي الشامل الذي جاء لينظم جميع شؤون الحياة، ولهذا النظام الأسري خصائص هي نفس الخصائص العامة للنظام الإسلامي: **ومن خصائص النظام الأسري في الإسلام**[(١)]:

الخصيصة الأولى: الربانية:

فنظام الزواج في الإسلام يتميز بخاصية الربانية وذلك من منطلقين:

المنطلق الأول: ربانية الغاية.

المنطلق الثاني: ربانية المصدر.

أولاً: ربانية الغاية:

إن الغاية السامية للزواج وتكوين الأسرة في الإسلام هي رضا الله تعالى، وحسن الصلة به، والتعبد له: «... **وفي بضع أحدكم صدقة.** قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: **أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجراً**»[(٢)]، ولذا فترى أن طرفي الزواج وجميع المحيطين به من أهل وشهود وغيرهم يبتغون بعلاقة الزواج وجه الله تعالى.

---

(١) انظر: قواعد تكوين البيت المسلم: ٧٠ وما بعدها بتصرف.

(٢) رواه مسلم (٢/٦٩٧).



ثانياً: ربانية المصدر:

التشريعات الإسلامية تشريعات ربانية مصدرها من الله تعالى فهو الذي شرع وأحل وحرم... ، ومما شرعه وأحله الزواج فلا يصح أن يقوم إلا على المنهج الذي شرعه الله وبينه من إنشاء الخطبة والعقد والولي والشهود...

لذا تجد أن آيات القرآن التي تتحدث عن العلاقات الأسرية تربط كل أوامرها برباط العقيدة، فمن النداء الإيماني المحبب للنفوس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ [النساء: ١٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

إلى الختم بما يوجب المراقبة لله تعالى واستحضار عظمته: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١]، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [النساء: ٣٥]، وفي ذلك حكم، منها:

١ ـ تأكيد حقيقة شمول معنى العبادة في الإسلام، فهي تشمل الحياة كلها ومن ذلك ما يتعلق بنظام الأسرة ابتداء بالخطبة والرؤية والرضا والعقد ووجود الولي... والمعاشرة بالمعروف والخلافات الأسرية والنفقة والوصية والطلاق... فكلها قد شملها الإسلام بتشريعاته ولم يتركها لتدخل البشر في سن مثل هذه التشريعات.

٢ ـ إحياء الضمير المسلم وإيقاظه؛ لأن أحكام الأسرة مما يناط تنفيذه والاستجابة له بتقوى الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ولذا يمكن للإنسان أن يتنصل من هذه الحقوق إذا جعل تقوى الله خلف ظهره.

٣ ـ حماية الأسرة من التمزق والصراع والشقاق؛ لأن أعمال الأسرة

مربوطة بتقوى الله وبالمراقبة له جل وعلا، ولذا فكل يؤدي دوره في الحياة كما هو مطلوب منه.

ومن خصائص نظام الأسرة والعلاقة الزوجية في الإسلام:

الخصيصة الثانية: الإنسانية:

إن منهج الإسلام في تشريع الزواج وبناء العلاقة الزوجية يعتني ببشرية الإنسان، ويلبي حاجاته في إطار يحافظ على الرقي بالإنسان وإسعاده وتكريمه والسمو به في هذه الحياة.

وتتجلى النزعة الإنسانية في تشريع الزواج والعلاقة الزوجية في:

١ ـ أن عقد الزواج على أكرم مخلوق وهو الإنسان، ولمكانة هذا العقد في تشريعات الإسلام أفرد لهذا العقد أحكاماً خاصة به تتميز عن غيره من العقود.

٢ ـ الإسلام في تشريعه للزواج اشترط الرضى بين الزوجين لإتمام العقد؛ لأنه يتعامل مع إنسان له كرامته وحقه عن التعبير عن ما يدور في خاطره. قال ﷺ: «**لا تنكح الأيم حتى تستأمر، ولا تنكح البكر حتى تستأذن.** قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: **أن تسكت**»[1].

فإن أُكرهت على الزواج فلها حق مشروع في طلب فسخ النكاح، جاءت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت: «إن أبي زوجني ابن أخيه؛ ليرفع بي خسيسته. قال: فجعل الأمر إليها. فقالت: قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن تعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء»[2].

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٤/٥)، حديث ٤٨٤٣ باب: لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها.

(٢) رواه أحمد (١٣٦/٦)، وابن ماجه (٦٠٢/١)، حديث ١٨٧٣، باب: من زوج ابنته وهي كارهة. وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (١٤٥/١)، حديث رقم ١٨٦٤.



وجاء في قصة أخرى أنه رد نكاح الولي: فقد زوج خذام ابنته وهي كارهة فأتت النبي ﷺ، فقالت: «يا رسول الله، إن أبي زوجني وأنا كارهة. قال: فرد رسول الله ﷺ نكاح أبيها»[1].

وأعجب من ذلك قصة بريرة ومغيث حين قال ﷺ لبريرة: «**لو راجعتيه**، قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: **إنما أنا أشفع**. قالت: فلا حاجة لي فيه»[2].

هذا هو الإسلام في تشريعاته في التعامل مع الإنسان!.

٣ ـ إن الإسلام رتب على هذه العلاقة الزوجية حقوقاً مشتركة يجمعها حسن العشرة بين الطرفين، فكل منهما له كرامته وإنسانيته، ولذا جاء النهي عن الضرب في الوجه والتقبيح كما في الحديث: «**لا تضرب الوجه ولا تقبح...**»[3]، لأنك تتعامل مع إنسان له كرامته وإنسانيته يجب أن تحفظ وتحترم.

ومن خصائص نظام الأسرة والعلاقة الزوجية في الإسلام:

الخصيصة الثالثة: الواقعية:

الإسلام دين الواقعية فتراه يراعي ظروف الإنسان وفطرته وطبيعته البشرية ومن واقعيته:

١ ـ أنه رغب في الزواج وحث عليه وأمر بتيسير أموره؛ لأن الزواج من الفطرة، ونهى عن التبتل فهو مخالف للفطرة السوية: «**أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم... وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[4].

(١) رواه البخاري (٦/٢٥٤٧)، حديث ٦٥٦٤٦، باب: لا يجوز نكاح المكره.
(٢) رواه البخاري (٥/٢٠٢٣)، حديث رقم ٤٩٧٩، باب: شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة.
(٣) رواه أبو داود (٢/٢٤٤)، باب في حق المرأة على زوجها حديث رقم ٢١٤٢.
(٤) رواه البخاري (٥/١٩٤٩)، حديث رقم ٤٧٧٦، باب: الترغيب في النكاح.

٢ ـ أنه جعل من غايات الزواج ومقاصده قضاء الوطر فهو معترف بالغريزة الجنسية وقوتها وتعامل معها بمنتهى الواقعية، فلم يطلق لها العنان ولم يكبتها وإنما شرع لها شرائع وسن لها الأحكام!!

٣ ـ أباح التعدد للزوجات لما له من الحكم والمقاصد التي لا تخفى على ذي لب وعقل.

٤ ـ جعل للعلاقة الزوجية مخرجاً إذا وصلت إلى طريق مسدود من عدم الاستمرارية؛ وذلك بتشريع الطلاق بعد استنفاذ كافة الطرق والوسائل الممكنة في الإصلاح بين الزوجين.

٥ ـ رتب الحقوق والواجبات على حسب خلقة كل من الطرفين فلم يكلف من لا يطيق بما لا يطيق!.

ومن خصائص الإسلام في نظام الأسرة والعلاقة الزوجية:

الخصيصة الرابعة: الشمولية:

إنه شمول يستوعب الزمن كله ويستوعب الحياة كلها ويستوعب كيان الإنسان، ومن مظاهر شموليته في نظام الأسرة والعلاقة الزوجية:

١ ـ أنه اهتم بهذه الأسرة ونظم شؤونها منذ لحظاتها الأولى وذلك بحسن الاختيار للأم، وحين يصبح جنيناً، وأعطاه الحق في الحياة والميراث والرضاعة والنفقة بعد الطلاق والحضانة والميراث والوصية والحداد عليه...

٢ ـ شموليته في تنظيم العلاقة الزوجية وبيان الحقوق والواجبات لكل من الرجل والمرأة فلم يترك أمراً إلا أبانه وأوضحه وجعل له تشريعاً حتى عند قضاء الوطر: «**اللّهم جنبنا الشيطان...**»[1].

إنه الإسلام دين الشمولية في كل جوانبه بما في ذلك العلاقة الزوجية،

(١) رواه البخاري (٢٣٤٧/٥)، حديث رقم ٦٠٢٥، باب: ما يقول إذا أتى أهله.



فأي بشر يستطيع أن يأتي بمثل هذا؟

وأي تشريع غير تشريع الإسلام يستطيع أن يلم بكل جوانب الحياة الزوجية وما يتعلق بها؟

إنه الإعجاز القرآني في تشريعه لهذه المسائل والأحكام؛ لتكون نبراساً للناس في حياتهم، وعلى مر الشهور والأزمان. وصدق الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].



المبحث الثالث:

العلاقة الزوجية في القرآن

العلاقة الزوجية علاقة وطيدة ممتدة امتداد الزمان، إذ هي علاقة نشأت منذ خلق آدم ثم زوجه حواء ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

لقد جاءت في القرآن آيات تبين كيفية العلاقة الزوجية ومداها، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]. ويقول تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

إن هذه الآيات لتبين مدى قوة العلاقة الزوجية، وتوضح أوجه إعجاز القرآن التشريعي في هذه العلاقة، وهي:

١ ـ خلق الأزواج من الأنفس.

٢ ـ السكن.

٣ ـ المودة.

٤ ـ الرحمة.

٥ ـ اللباس.

وإليك بيان ما أجمل:

❋ ❋ ❋



المطلب الأول:

خلق الأزواج من النفوس

يقول ابن فارس: «زوج: الزاي والواو والجيم أصل يدل على مقارنة شيء لشيء...»[(١)]. ويقول الراغب: «يقال لكل من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة: زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها: زوج، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاد: زوج.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٩]، وقال: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]»[(٢)].

ففي قوله تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا...﴾ يبين جل وعلا أن من آياته الدالة على كمال ربوبيته وألوهيته أنه خلق المرأة من الرجل؛ ليحصل التآلف والأنس بينهما إذ لو جعل كل منهما من جنس لما حصل التآلف والتزاوج؛ وهذه نعمة من الله إذ جعل قرين الإنسان متكوّناً من نوعه، ولو لم يجعل له ذلك لاضطُرّ الإنسان إلى طلب التأنّس بنوع آخر!.

يقول ابن كثير[(٣)]: «... ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس. ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم...».

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (زوج).

(٢) المفردات، مادة (زوج).

(٣) تفسير القرآن العظيم له (٣/٤٣٩).

ومن لطائف الآية:

أن الزواج من صنعة الله جل وعلا، فلا دخل لأحد في أمر هذا التزاوج، ولتتأمل كيف أن المرأة ترضى بأن تقترن برجل لا تعرفه ولا يعرفها تقاسمه الضراء والسراء تاركة أهلها وإخوتها وأقاربها؛ ليكوّن هذا الزواج بينهما مودة ورحمة أقوى ما تكون بعد ذلك فسبحان الله العظيم!.

ومن لطائف الآية:

أن في قوله: ﴿لَكُم﴾ ما يفيد الاختصاص والتملك، مما يعني أن هذا الذكر لهذه الأنثى وهذه الأنثى للذكر لا يصلح لها غيره إلا ما شاء الله، وعليه فكل منهما مطلوب منه أن يحسن عشرة صاحبه وليتعاشرا بالمعروف.

ومن لطائف الآية:

أن الوصف بالزوج يؤذن بملازمته للآخر، فلذا سمّي بالزوج قرين المرأة وقرينةُ الرجل، وهذه نعمة اختصّ بها الإنسان إذ ألهمه الله بجعل قرين له، وجبله على نظام محبّة وغيرة.

لا يسمَحان له بإهمال زوجه كما تهمل العجماوات إناثها، وتنصرف إناثها عن ذكورها. كما أن في التعبير بالنفس أظهر في كونها من بدن الرجل[1].

ومن لطائف الآية:

جاء بالتعبير بقوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ ليتم التآلف والتعارف والتزاوج، فالمرأة من بدن الرجل، وهي تشابهه في الشكل والصورة، وجاءت المشابهة في الخلْق والتكوين والإنسانية متطابقة إلا في بعض خصائص الذكورة والأنوثة مما اقتضته طبيعة التمييز لبقاء النوع البشري.



(١) انظر: نظم الدرر (٦/٣٠٠).



المطلب الثاني:

السكن

وردت مادة (سكن) في القرآن الكريم كثيراً ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٣]، وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] وغيرها من الآيات فما تعني مادة سكن؟

يقول ابن فارس: «سكن: السين والكاف والنون أصل واحد مطرد، يدل على خلاف الاضطراب والحركة. يقال: سكن الشيء يسكن سكوناً فهو ساكن...»[(١)].

ويقول الراغب: «سكن: السكون ثبوت الشيء بعد تحرك...»[(٢)].

وفي المعجم: «سكن المتحرك سكوناً وقفت حركته... والنفس بعد الاضطراب هدأت وإليه استأنس به واستراح إليه»[(٣)].

ومما سبق يظهر لنا أن الفعل المجرد سكن يعني وقوف الحركة وكل ما هدأ فقد سكن فيقال: سكن المتحرك سكوناً وقفت حركته والمتكلم سكت.

وعند إضافته (إلى) يقال: سكن إليه، أي: استأنس به واستراح إليه وهدأت إليه...

وسكن إلى المكان وبه: أقام به واستوطنه...

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (سكن).

(٢) المفردات، مادة (سكن).

(٣) المعجم الوسيط، مادة (سكن).

والسكن: المسكن وكل ما سكنت إليه واستأنست به والزوجة، والنار، والرحمة...

ومن هذه المعاني نستطيع الانتهاء إلى أن السكن في العلاقة الزوجية لا يخرج عن هذا المعاني بل تجمعها ويشملها.

فالزوجان قبل الزواج في اضطراب وحيرة وتفكير فيمن سيقترن به ومن سيتزوج كلًّا منهما!

وبعد الزواج يسكن كل منهما للآخر فيأنس به ويطمئن إليه ويعاشره بالمعروف ويحسن إليه.

والزوجان يسكن كل منهما مع صاحبه في منزل يتخذانه موطناً للسكون والراحة والطمأنينة.

والرجل والمرأة سكن لبعضهما البعض، ولذا فقوله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ وقوله: ﴿لِتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ تشمل كل معاني السكن من السكون والهدوء والطمأنينة والأنس والراحة والسعادة والإقامة.

معنى السكن عند أهل التأويل:

اتفق أهل التفسير في جميع المواضع التي تحدثت عن سكون المخلوقات من ريح أو ماء أو مكان أو زمان أو أنس على أن السكون بمعنى الاستقرار والتوقف عن الحركة...[1].

واختلف أهل التفسير في موضعين في تفسير السكن وهما المسندان إلى الزوجة وذلك في قول الله: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/١٧٤)، والجامع لأحكام القرآن (٦/٣٩٦)، والبحر المحيط (٤/٨٧)، وفتح القدير (٢/١٤٧)، والتحرير والتنوير (٦/٣٥).



خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

يقول الطبري[(١)]: «ويعني بقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليأوي إليها لقضاء حاجته ولذته».

ويقول عند قوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾: «يقول تعالى ذكره: ومن حججه وأدلته على ذلك أيضاً خلقه لأبيكم آدم من نفسه زوجة ليسكن إليها...». فقد أضاف إلى معنى السكون معنى جديد وهو قضاء الحاجة واللذة بالجماع. وقضاء الشهوة أمر يحتاج إلى السكن والراحة والطمأنينة والستر.

قال الزمخشري[(٢)]: «... ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه. وقال: ﴿لِيَسْكُنَ﴾ فذكَّر بعدما أنث في قوله: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾، ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ذهاباً إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم؛ ولأن الذَّكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى».

ويقول في قوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾: «... أو من شكل أنفسكم وجنسها، لا من جنس آخر؛ وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ التوادّ والتراحم بعصمة الزواج، بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفة، ولا لقاء، ولا سبب يوجب التعاطف من قرابة أو رحم. وعن الحسن رضي الله عنه: المودة كناية عن الجماع، والرحمة عن الولد... ويقال: سكن إليه، إذا مال إليه، كقولهم: انقطع إليه، واطمأن إليه، ومنه السكن:

---

(١) (٦١٨/١٠)، و(٤٧٨/١٨).

(٢) تفسيره (١٧٩/٢)، و(٤٥٧/٣).

وهو الإلف المسكون إليه، فعل بمعنى مفعول. وقيل: إن المودة والرحمة من قبل الله وإن الفرك من قبل الشيطان».

ويقول ابن كثير[1]: «﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: خلق لكم من جنسكم إناثاً يَكُنَّ لكم أزواجاً، ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، يعني بذلك: حواء، خلقها الله من آدم من ضِلَعه الأقصر الأيسر، ولو أنه جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نَفْرَة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾». فتراه جمع بين الآيتين في معنى واحد.

ويقول الرازي[2]: «﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ يعني: أن الجنسين الحيَّين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي: لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه... يقال: سكن إليه للسكون القلبي، ويقال: سكن عنده للسكون الجسماني، لأن كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام وإلى للغاية وهي للقلوب...».

ففي كلامه إشارة إلى الطمأنينة القلبية، ولا يتم السكن إلا بالطمأنينة القلبية بين الطرفين.

---

(١) تفسيره (٣/٤٣٩).
(٢) مفاتيح الغيب (١٢/٢٢٤).



ويقول البقاعي[1]: «... ﴿أَزْوَٰجًا﴾ إناثاً هنَّ شفع لكم ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾ مائلين ﴿إِلَيْهَا﴾ بالشهوة والألفة، من قولهم: سكن إليه: إذا مال وانقطع واطمأن إليه، ولم يجعلها من غير جنسكم لئلا تنفروا منها».

ويقول ابن عاشور[2]: «والسكون: هنا مستعار للتأنس وفرح النفس؛ لأن في ذلك زوال اضطراب الوحشة والكمد بالسكون الذي هو زوال اضطراب الجسم كما قالوا: اطمأن إلى كذا وانقطع إلى كذا.

وضمن ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟﴾ معنى لتميلوا فعدي بحرف (إلى) وإن كان حقه أن يعلق بـ(عند) ونحوها من الظروف...».

فبين أن السكون فرح للنفس، كما أن السكون يتضمن الميل، فكل من الرجل والمرأة يميل إلى الآخر، لو لم يمل بعضهما إلى بعض لما حصل بينهما ألف ولا سكون!

ويقول سيد قطب[3]: «... فهي نفس واحدة في طبيعة تكوينها، وإن اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى، وإنما هذا الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجه ويستريح إليها... وهذه هي نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان، ووظيفة الزوجية في تكوينه، وهي نظرة كاملة وصادقة جاء بها هذا الدين منذ أربعة عشر قرناً، يوم أن كانت الديانات المحرفة تعد المرأة أصل البلاء الإنساني، وتعتبرها لعنة ونجساً وفخاً للغواية تحذر منه تحذيراً شديداً، ويوم أن كانت الوثنيات ـ ولا تزال ـ تعدها من سقط المتاع أو على الأكثر خادماً أدنى مرتبة من الرجل ولا حساب له في ذاته على الإطلاق.

(١) نظم الدرر (٦/٣٠٠).
(٢) تفسيره (٢١/٣٢).
(٣) في ظلال القرآن (٣/١٤١١).

والأصل في التقاء الزوجين هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار؛ ليظلل السكون والأمن جو المحضن الذي تنمو فيه الفراخ الزغب، وينتج فيه المحصول البشري الثمين، ويؤهل فيه الجيل الناشئ لحمل تراث التمدن البشري والإضافة إليه، ولم يجعل هذا الالتقاء لمجرد اللذة العابرة والنزوة العارضة، كما أنه لم يجعله شقاقاً ونزاعاً، وتعارضاً بين الاختصاصات والوظائف، أو تكراراً للاختصاصات والوظائف؛ كما تخبط الجاهليات في القديم والحديث سواء!».

وينظر سيد قطب للعلاقة الزوجية من الناحية المعنوية التي تحقق للطرفين الطمأنينة والسعادة أكثر من أن تحقق اللذة والشهوة، ولذ أكد على هذا المعنى عند قوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ فقال: «... والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين؛ وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة، ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجاً، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقراراً للحياة والمعاش، وأنساً للأرواح والضمائر واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء.

والتعبير القرآني اللطيف الرفيق يصور هذه العلاقة تصويراً موحياً، وكأنما يلتقط الصورة من أعماق القلب وأغوار الحس: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾... ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾... ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾... فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقاً للآخر ملبياً لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار؛ ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة؛ لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في



النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد»[1].

فالسكن إذاً يشمل كل المعاني السابقة من السكن الحسي والمعنوي والنفسي... إنه قضاء اللذة... والهدوء والراحة... والطمأنينة... والأنس... وفرح النفس.

ومن لطائف الآية:

إن في التعبير بلفظ ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ إشارة إلى المسكن الحسي للإنسان وهو منزله ليدل على طول الإقامة واستمرارية الحياة الزوجية الهانئة الممهدة لجيل آخر جديد.

ولا شك أن السكن الحسي مما يعين على السكن المعنوي والنفسي، ويزيد السكن سكناً وقد سبق أن أشرنا إلى أن من معاني السكن: المسكن.

السكن الحسي:

يقول تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن بيان ما يجب للنساء من السكنى، ومن للتبعيض، أي: بعض مكان سكناكم، وقيل: زائدة ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: من سعتكم وطاقتكم، والوُجد القدرة... قال قتادة: إن لم تجد إلاّ ناحية بيتك فأسكنها فيه[2].

فالسكن يحفظ المتاع، ويحفظ من العيون، ويحصل به الاستمتاع وهو يؤدي حتماً للسكن المعنوي.

ولنعرف أهمية السكن في الحياة الزوجية أن الله تعالى أضافه للمرأة في أكثر من موضع فقال: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ١٣]، وقال: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، وفيه ما فيه من إفادة الاستقرار والهدوء

---

(١) في ظلال القرآن ٢٧٦٣.

(٢) انظر: فتح القدير (٣٢٥/٥).

في حياة المرأة؛ ليحصل السكن المعنوي تبعاً للسكن الحسي.

النفقة:

ومما يعين على السكن النفقة التي هي قوام الحياة الزوجية وقد قرن الله بينها وبين السكن الحسي بقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦]، والنفقة تعين على السكن والطمأنينة في الحياة الزوجية.



المطلب الثالث:

المودة

يقول ابن فارس: «ودَّ: الواو والدال: كلمة تدل على محبة. وددته: أحببته...»[١].

ويقول الراغب: «ودد: الود: محبة الشيء وتمني كونه...»[٢].

ولما كان المقصود بالسكن لا ينتظم إلا بدوام الألفة قال: ﴿وَجَعَلَ﴾ أي: صير بسبب الخلق على هذه الصفة ﴿بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾ أي: معنى من المعاني يوجب أن لا يحب واحد من الزوجين أن يصل إلى صاحبه شيء يكرهه[٣].

والمودة: المحبة، وهي أمر يعم الزوجين وأسرتيهما؛ لأن كل منهما لا تقتصر علاقته بالطرف الآخر، وإنما تشمل أسرتيهما[٤].

---

(١) معجم مقاييس اللغة، مادة (ودَّ).
(٢) المفردات، مادة (ودد).
(٣) نظم الدرر (٦/٣٠١).
(٤) منهج السنة في الزواج: ٦٢.

والمعنى: أن الله قد جعل بين الزوجين بالزَّواج الذي شرعَه لكم توادًّا وتراحماً من غير أنْ يكونَ بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصحِّحة للتَّعاطف من قرابة أو رحم، وما من شيء أحبَّ إلى أحد من الآخر من غير رحم بينهما من الزوجين، ولولا هذه الرابطة لما أنس رجل بامرأة، ولما دامت الصحبة والألفة.

إنك ترى الرجل يرتبط بامرأة لا يعرفها لا تربطه بها رابطة، تختلف عنه في العادات والأخلاق، وما أن يقترن أحدهما بالآخر ويتم اللقاء والمعاشرة حتى يصبح كلًّا منهما جزء من الآخر، يصيبه الهم والحزن عند فقد صاحبه والبعد عنه، فما الذي جعل هذا بينهما؟ إنه الله الذي جعل ذلك؛ ليكون آية من آياته في هذا الكون، فسبحان الله العظيم الذي جعل هذه العاطفة وهذه المودة والمحبة؛ ليستمر بقاء النوع البشري!

وعلى القول بأن المودة تعني الجماع فيكون التعبير بذلك لأمور؛ منها:

١ ـ أن الجماع مما يحتاجه الإنسان السوي، ولا يكون إلا مع من يحب، أما من لا يحب فإن الإنسان ينفر منه.

٢ ـ أن بالجماع تتحقق الراحة النفسية والجسدية والعصبية، فيمتلئ القلب حباً والجسد راحة.



المطلب الرابع:

الرحمة

لما كان هذا المعنى الحسن لا يتم إلا بإرادة الخير قال: ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: معنى يحمل كلًّا على أن يجتهد للآخر في جلب الخير، ودفع الضير[1].

(١) انظر: نظم الدرر (٦/٣٠١).

قيل: المودة: كناية عن النكاح. والرحمة: كناية عن الولد[1].

قال ابن كثير[2]: «... وجعل بينهم وبينهنّ مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما...».

ويقول ابن عاشور[3]: «وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة».

ويقول الرازي[4]: «فالمودة تكون أولاً ثم إنها تفضي إلى الرحمة، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس».

إن بالمودة والرحمة يتغلب الزوجان على الخلافات التي قد تنشأ بينهما بين الفينة والأخرى وهذا من نعم الله المتوالية على بني آدم.

ولذا فقد ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي تقدم من خلق الأزواج على الحال المذكور وما يتبعه من المنافع ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أي: دلالات واضحات على قدرة فاعله وحكمته.

ولما كان هذا المعنى مع كونه دقيقاً يدرك بالتأمل قال: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ أي: رجال أو في حكمهم، لهم قوة وجد ونشاط في القيام بما يجعل إليهم

(١) انظر: الدر المنثور (١١/٥٩٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٣٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/٣٢).

(٤) مفاتح الغيب (١٢/٢٢٥).



﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: يستعملون أفكارهم على القوانين المحررة ويجتهدون في ذلك[1].

وفي الجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيهِ على أنَّ ما ذُكر ليس بآيةٍ فذَّةٍ كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ بل هي مشتملة على آياتٍ شتَّى[2].

قال الألوسي[3]: «... لما كان القصد من خلق الأزواج والسكون إليها وإلقاء المحبة بين الزوجين ليس مجرد قضاء الشهوة التي يشترك بها البهائم بل تكثير النسل وبقاء نوع المتفكرين الذين يؤديهم الفكر إلى المعرفة والعبادة التي ما خلقت السماوات والأرض إلا لها ناسب كون المتفكرين فاصلة هنا».



المطلب الخامس:

اللباس

يقول تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧] فما معنى الآية؟

قال ابن فارس: «لبس: اللام والباء والسين أصل صحيح واحد يدل على مخالطة ومداخلة، من ذلك: لبست الثوب ألبسه... ومن الباب: اللباس، وهي امرأة الرجل، والزوج لباسها...»[4].

---

(١) انظر: نظم الدرر (٦/٣٠١).
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٥/٢٧٧).
(٣) انظر: روح المعاني (٢١/٤٤).
(٤) معجم مقاييس اللغة، مادة (لبس).

وقال الراغب: «لبس: لبس الثوب: استتر به وألبسه غيره... وجعل اللباس لكل ما يغطي من الإنسان عن قبيح فجعل الزوج لزوجه لباساً من حيث إنه يمنعها ويصدها عن تعاطي قبيح...»[1].

وذهب في تفسير اللباس إلى مذهبين:

١ - أن اللباس بمعنى: السكن، وبه قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما، ومثله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

٢ - أنهن بمنزلة اللباس؛ لإفضاء كل واحد ببشرته إلى بشرة صاحبه، فكنى عن اجتماعهما متجردين باللباس.

ولا تضاد بين القولين، إذ أن كلًّا من الزوجين سكن للآخر كما تقدم، وأنهما بمنزلة اللباس من لابسه لبعضهما.

ومن لطائف الآية:

تقدَم قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ على ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ تنبيهاً على ظهور احتياج الرجل للمرأة وعدم صبره عنها؛ ولأنَّه هو البادئ بطلب ذلك، وكنى باللباس عن شِدَّةِ المخالطة[2].

يقول سيد قطب[3]: «... والرفث مقدمات المباشرة، أو المباشرة ذاتها، وكلاهما مقصود هنا ومباح... ولكن القرآن لا يمر على هذا المعنى دون لمسة حانية رفافة، تمنح العلاقة الزوجية شفافية ورفقاً ونداوة، وتنأى بها عن غلظ المعنى الحيواني وعرامته، وتوقظ معنى الستر في تيسير هذه العلاقة: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾..

(١) المفردات، مادة (لبس).
(٢) اللباب (٢/٣٧٠).
(٣) في ظلال القرآن (١/١٦٧).



واللباس ساتر وواق... وكذلك هذه الصلة بين الزوجين تستر كلاً منهما وتقيه. والإسلام الذي يأخذ هذا الكائن الإنساني بواقعه كله، ويرتضي تكوينه وفطرته كما هي ويأخذ بيده إلى معارج الارتفاع بكليته... الإسلام وهذه نظرته يلبي دفعة اللحم والدم، وينسم عليها هذه النسمة اللطيفة، ويدثرها بهذا الدثار اللطيف... في آن...

ويكشف لهم عن خبيئة مشاعرهم، وهو يكشف لهم عن رحمته بالاستجابة لهواتف فطرتهم: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾».

ومن لطائف الآية:

أنه لما كان الرجل والمرأة يعتنقان، فيضم كل واحد منهما جسمه إلى جسم صاحبه حتى يصير كل واحد منهما لصاحبه كالثوب الذي يلبسه، سمي كل واحد منهما لباساً.

ومن لطائف الآية:

أنه تعالى جعل المرأة لباساً للرجل، من حيث إنه يخصها بنفسه، كما يخص لباسه لنفسه ويراها أهلاً؛ لأن يلاقي كل بدنه كل بدنها كما يعمله في اللباس، وكذلك الحال للمرأة(١).

ومن لطائف الآية:

في هذا التعبير القرآني بيان للحال الذي تصل إليه العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة في أن كلاً منهما لا يستطيع أن يصبر ويستغني عن الآخر مثل اللباس لصاحبه الذي لا ينفك عنه بأي حال من الأحوال.

---

(١) مفاتح الغيب (٣/١١٩).

ومن لطائف الآية:

أن فيها بيان للحالة التي تصل بين الزوجين من الامتزاج كامتزاج الثوب وملاصقته لبشرة لابسه.

ومن لطائف الآية:

أن فيها إشارة لما يجب أن يحصل من السرية الكاملة في العلاقات الجنسية بين الزوجين.

ومن لطائف الآية:

يجب على كل من الزوجين أن يحافظ على الآخر كما يحافظ المرء على لباسه الذي يلبسه؛ فيصونه ويحرص عليه أيما حرص؛ لأنه هو الذي يعبر عن مظهره.

ومن لطائف الآية:

بيان أن الرجل والمرأة يكمل بعضهما البعض كما يكمل اللباس نقص صاحبه ويستر ما قبح منه!.

ومن لطائف الآية:

أن على المرء أن يحرص على أن يختار من خير النساء لنفسه وكذلك المرأة، كما يحرص المرء على أن يختار من اللباس أحسنه وأجمله.

ومن لطائف الآية:

أن في هذا التعبير القرآني إيحاء إلى عدم التضايق من الآخر والغض عن هفوات صاحبه إذ كيف يتضايق الإنسان مما يلبس!.

ومن لطائف الآية:

أن التعبير القرآني قد بلغ الغاية القصوى في البيان والجمال فعبر عن المباشرة الجنسية التي تكون بين الزوجين بتعبير سام ولطيف، يفوق الخيال في روعة الجمال؛ لتعليمنا الأدب في الأمور التي تتعلق بالجنس ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[1].

هذه العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة كما يصورها القرآن في أسمى معانيها، وأجمل صورها تدل على إعجاز القرآن إذ لا يقدر على إيجاد هذه الأمور بين الزوجين إلا الله.



(١) الزواج الإسلامي المبكر: ٢٤.

المبحث الرابع:
وجوه الإعجاز التشريعي في الزواج

بعدما سبق نستطيع أن نصل إلى بيان بعض وجوه الإعجاز، منها:

١ ـ أن الله هيأ كلًّا من الزوجين من بني الإنسان للتكامل مع الآخر فخلقهما من نفس واحدة هي آدم ومنه حواء أو الذكر والأنثى فهما من نفس الجنس والشكل والصورة، ليحصل السكن والألفة والطمأنينة وليحصل السكن والميل لبعضهما بعضاً بما لا يحصل بين الجنسين المختلفين، وتلك آية من آيات الله الدالة على قدرته وعظيم صنعه تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

٢ ـ الزواج الإسلامي لم يكن نتاج مفاهيم البيئة التي نزل فيها القرآن، ولم يرث الرسول ﷺ موروثات قومه في عاداتهم الجاهلية في الزواج، إنما جاء بتشريعات جديدة منظمة لحياة الناس في علاقاتهم الزوجية، وتلك من صالح البشر أجمعين.

٣ ـ الزواج في التشريع الإسلامي يسعى إلى تحقيق أهداف، هي: المودة والرحمة والسكينة والتي يعبر عنها بإشباع الغريزة الفطرية، والتناسل بطريق مشروع، وإقامة حياة آمنة، وهذه الغريزة في الإنسان لا يمكن إشباعها إلا عن طريق الزواج الشرعي، فهو يشبع الغرائز الجنسية، ويشبع غريزة الأبوة والأمومة كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤].

يقول ابن عاشور[١]: «والشهوات جمع شهوة، وأصل الشهوة مصدر

(١) التحرير والتنوير (٣/٣٧).



شهِي كرضي، والشهوة بزنة المَرّة، وأكثر استعمال مصدر شَهِي أن يكون بزنة المَرة. وأطلقت الشهوات هنا على الأشياء المشتهاة على وجه المبالغة في قوة الوصف. وتعليقُ التزيين بالحبّ جرى على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأنّ المزيَّن للناس هو الشهواتُ، أي: المشتهيات نفسها، لا حبُّها، فإذا زُينت لهم أحَبُّوها؛ فإنّ الحبّ ينشأ عن الاستحسان، وليس الحبّ بمزيَّن، وهذا إيجاز يغني عن أن يقال: زينت للناس الشهوات فأحبّوها، وقد سكت المفسّرون عن وجه نظم الكلام بهذا التعليق».

ويقول سيد قطب(١): «ولما كانت هذه الرغائب والدوافع ـ مع هذا ـ طبيعية وفطرية، ومكلفة من قبل البارئ ـ جل وعلا ـ أن تؤدي للبشرية دوراً أساسياً في حفظ الحياة وامتدادها، فإن الإسلام لا يشير بكبتها وقتلها، ولكن إلى ضبطها وتنظيمها، وتخفيف حدتها واندفاعها؛ وإلى أن يكون الإنسان مالكاً لها متصرفاً فيها، لا أن تكون مالكة له متصرفة فيه؛ وإلى تقوية روح التسامي فيه والتطلع إلى ما هو أعلى.

ومن ثم يعرض النص القرآني الذي يتولى هذا التوجيه التربوي.. هذه الرغائب والدافع، ويعرض إلى جوارها على امتداد البصر ألواناً من لذائذ الحس والنفس في العالم الآخر، ينالها من يضبطون أنفسهم في هذه الحياة الدنيا عن الاستغراق في لذائذها المحببة، ويحتفظون بإنسانيتهم الرفيعة.

وفي آية واحدة يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى نفس الإنسان: النساء والبنين والأموال المكدسة والخيل والأرض المخصبة والأنعام.. وهي خلاصة للرغائب الأرضية، إما بذاتها، وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى». وقدم ذكر النساء على البنين لعراقتهن في معنى الشهوة(٢).

---

(١) في ظلال القرآن (٣/٣٦٧).

(٢) تفسير أبي السعود (١/٣٦٢).

٤ ـ الأنثى في التشريع الإسلامي تتساوى مع الذكر في الخلْق وتحقق معه التكامل في هذه الحياة، وتبني معه هذه الأسرة الوليدة، وليست هي تلك الأنثى المضطهدة المظلومة كما في الحضارات السابقة والمتأخرة، فقد كانت تدفن حية في الجاهلية كما كانت تحرق بعد موت زوجها في الحضارة الهندية، وهي رأس الخطيئة ومنبع الإغواء وحبل الشيطان كما في اليهودية، وهل هي إنسان أم لا كما في النصرانية[(١)].

٥ ـ الناظر بعين البصر والبصيرة في التشريع الإسلامي للزواج وما يتبعه من علاقة زوجية وفي بعض التشريعات الأخرى ليجد أن البون كبير، ففي هذه التشريعات لم يتحقق أي هدف من تشريع الزواج فالنساء مشاعات للجميع والأولاد للمجتمع كذلك[(٢)]، وما كان يحدث قبل الإسلام من نكاح البغايا وغيره ليس بخاف على الجميع.

٦ ـ هذه التشريعات مظهر من مظاهر «اليسر» الرباني فالله قد أراد الخير بنا عندما شرع هذه التشريعات كما قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥][(٣)].

٧ ـ أن البشر مهما بلغوا من العقل والإدراك فلن يستطيعوا أن ينظموا ويشرعوا مثل ما شرع الله في أمر الزواج وما يكون بين المرء وزوجه من المودة والرحمة وغيرها.

٨ ـ أن الإعجاز يكمن في أن هذه التشريعات لن يحيط بها أي بشر مهما أوتي من قدرة أو قوة، وأن قوانين البشر قاصرة عن الإلمام بكل هذه التشريعات لكل صغيرة وكبيرة في الحياة الأسرية فما بقي إلا أن نسلم أنها من إعجاز القرآن الذي يقودنا إلى الإيمان بالله وحده والتسليم له، وأنه هو

(١) انظر: المرأة بين الفقه والقانون: ١٨
(٢) أحكام الأسرة: ٩٩.
(٣) انظر: البيان في إعجاز القرآن: ٣٢٤.



الذي أنزل القرآن على الرسول ﷺ. . كما تدل على صدق رسالة النبي عليه الصلاة والسلام، وصدق الله وهو يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾.

أخيراً: إن على أهل العلم دور كبير في إبراز إعجاز القرآن التشريعي، ومحاولة بيانه وبيان قيمه وأهدافه خاصة في هذا الزمان؛ ليدرك الناس حقيقة القرآن الكريم وأن سعادتهم تكمن في العمل به والإيمان بمنزله وهو الله جل وعلا. وصدق الله ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وصلَّى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

